المشرق

الفينيقيّون ومصر

مقتطف من محاضرة الاستاذ بيار مونته

للاب رينه موتردالبسوعي

قد أعجب الذين توفّقوا لاستماع محاضرة الاستاذ بيار مونته في نادي كليّتنا يوم الخميس الواقع في ٢ كانون الثاني سنة ١٩٢٤ ما رأوا في الخطيب من سلاسة الكلام وحسن التعبير في ايضاح بحثه التاريخي عن العلاقات بين مصر وجبيل . ولمّا اختتم فخامة الجنرال قيتا تلك الحفلة اثنى على الخطيب لما رآه الحضور في شخصه من العلم البليغ والسذاجة معاً وهو في ربيع عمره . والحقّ يقال انّ المسيو مونته عرف بحسن نظره وتدقيقه ان يستخلص من موضوع غاية في الارتباك والتعقيد معلومات نيّرة عمّا دار قديماً بين اهل فينيقية وقطر النيل من العلائق

*

وكانت هذه العلائق اوّلاً بين البلادين اقتصاديّة كما تشهد عليها الآثار المصريّة المدوّنة على أنصاب القراعنة التي كانوا يرقونها بعد انتصاراتهم بالقلم الهيروغليفي كما تُرى في جدران هياكلهم ومدافنهم

وكان اخصّ ما يجذب آل مصر الى مرفأ جبيل ما يلقونهُ هناك من الاخشاب الكريمة والاخشاب البنائيّة التي تُقطع من غابات لبنان فينقلونها الى مصر لحاجاتهم المختلفة كما فصّلتها جريدة البشير في عددها الصادرَين في ٨ و١٠ كانون الثاني واليها

ألفت النظر فخامة الجنرال ڤيغان لتحريض اهل لبنان على مواصلة تحريج الجبل الذي يُوشر بهِ بفضل الانتداب

على انَّ هذه العلائق الاقتصاديَّة مع عظم شأنها لا تبلغ ما استفدنا من الحفريَّات الحديثة التي تولَّاهـا الاستاذ مونته لمعرفة العلائق السياسيَّة والدينيَّـة بين فينيقية ومصر. فهي توقفنا على معلومات تاريخيَّـة جليلة تحقق وتكمل مـا ورد في الآثار المصريَّة عن ثلاثة ادوار من التاريخ القديم

﴿الدور التاريخيّ الاوّل﴾ اذا رقينـا الى الالف الثالث قبل المسيح في عهـد السلالات المصريَّة الاولى حتى الطور المعروف بالطور الثيني (époque thinnite) نسبةً الى عاصمتهم مدينة ثيني نجد المصريين محتلين جبيـل حيث شيَّدوا هيكلًا للمعبودات الفينيقيَّة الوطنيَّة. وقد اهتدى الاثريُّون الى اكتشاف رسم مدخله الفخم (pylone) الذي كانت نُصبت لحراستهِ ثلاثة اشخاص جبَّاريَّة وُجدت محطَّمةً كُسرت من وسطها او منتصف سوقها. وكان هناك ايضاً تمثال إلهة فينيقيَّة وهي المعروفة عندهم بِبَعْلة جبيل وعند المصريّين بسيّدة جبيل. وقد مثَّلوها جالسةً تُشبه بملبوسهـا إلهة المصريّين المدعوة إيزيس بجلالها وهيبتها وجعلوها في اقصى الهيكل

وكان ملوك مصر يرسلون الى هذا الهيكل تقادمهم الفاخرة بينها الآنية الحجريَّة الصلبة والحجريَّة البيضاء الشفَّافة او البلّور المنحوتة نحتاً فنيًّا وعلى البعض من هـذه الآنية كتابات هيروغليفيَّة يُستدلُّ منها انها تقدمة الفرعون لآلهة جبيل وعليها كُتب اسمهُ في دائرة بيضويَّة الشكل يدعوها الاثريُّون اطارهُ او قرطاسهُ (cartouche)

على انَّ هذه التقادم التي كان الفراعنة يهدونها لمعبودات جبيل لم تكن خالية من الغرض فانَّ ملوك مصر كانوا ينوون بها انهم اوَّل عبيد تلك الآلهـة ومثلوها على الارض فكانوا يعتزون نفوسهم بعبيد آلهة جبيل كما كانوا في مصر يدعون ذواتهم عبيد شمس مصر الالهيَّة يشيرون بذلك الى سيادتهم على البلاد فيجاهرون بها منذ الالف الثالث قبل المسيح. وهـذه السيادة القديمة على فينيقية لم يوجد لهـا اثرٌ في كتابات الفراعنة المكتشفة في القطر المصري فاوقفتنا عليها حفريَّات جبيل وذلـك الف سنة بنيف قبل السيطرة المصريَّة التي كنَّا نعرفها سابقاً اعني نحو السنة ١٨٠٠ ق م

﴿الطور الثاني﴾ لم تُفدنا هـذه الحفريَّات شيئاً جديداً عن الازمنة التي تبعت

تلك السلالات الاولى الى السلالة المصريّة الثانية عشرة نحو السنة ١٨٠٠ المذكورة

ومما اوقفنا عليه المسيو مونته تشييد الفينيقيين هيكلاً لآلهتهم بين القرنين القرن الخامس والعشرين والقرن العشرين قبل المسيح بنوهُ على التلّ المشرف على مرفإهم القديم. وقد استدلّ على ذلك ليس بكتابة صريحة بل على طريقة الاستنتاج والتطبيق

فلا شكّ ان معظم بهاء الهيكل المذكور يجب نسبتُهُ الى السلالة الثانية عشرة ان بنينا حكمنا على المدافن الملكيّة المكتشفة حديثاً. فقد وُجد احدها صدفةً بعناية خاصّة من الله شكرها له الاثريّون وذلك في السنة ١٩٢٠ لمّا حدث ذلك الجرف الساحليّ الذي كشف عن مدفن منقور في قلب الصخر فكان هناك ناووس كبير من الحجر الاصمّ يعلوهُ غطاء ضخم تزينهُ في زواياه الاربع السنة او مُسَكٌ كألسنة القوائم التي يربط النوتيّون بها سفنهم كان القدماء يتشبّثون بها لفتح الناووس قبل ان يودعوه جثّة الميت. وكان في الناووس وحولهُ آنيةٌ واعراض شتى ثمينة وُجدت غائصةً في حمأة سوداء كانت ترشّحت من الخارج الى باطن المدفن على مدى الزمان

امّا الغرفة المدفنيّة فكانوا نقروها في مدّة حياة الملك وحفروا لها بئرًا عموديّة في الصخر بلغ علوّها نحو ثمانية امتار ومنها انزلوا الناووس بارعاً ثم سدّوا تلك البئر وملطوا فوهتها. وجهّزوا فوقها حجرةً يجتمع فيها اقارب الملك بعد موته ليقيموا فرائض العزاء. امّا نقل الميت الى قبره فكانوا يتخذون لذلك مسلكاً آخر فكانوا يحفرون سرداباً ينحني من وجه الارض عن بُعد من المدفن فينفذ الى الحجرة التي أُنزل اليها الناووس الفارغ من البئر ثمّ يطبّقون باب السرداب فيخفى عن العموم. فعلى هذا المنوال بُنيت كلّ مدافن جبيل التي اكتشفها المسيو مونته. وعلى مثالها سبق المصريّون فبنوا مدافنهم

ولعلّك تسأل ما هي العلاقات السياسيّة بين مصر وفينيقية التي افادتنا عنها مدافن جبيل في القرن الثامن عشر. اجبنا انّ الكتابة التي وُجدت على احد الاواني المكتشفة والراقية الى عهد أمنمحت الرابع تنعت امراء جبيل «بعبيد الاله أمنمحت الكامل فليحيَ الى الابد» فارادوا بلفظ «العبيد» خضوع الامراء للفرعون. وهذه الكلمة ذاتها مرقومة على آثار مصر للدلالة على حكّام الولايات المصريّة اي عمّال الفرعون فيستنتج من ذلك ان الفراعنة كانوا هم الملوك يعدّون امراء جبيل كعمّالهم. الّا انّ في

الهدايا التي ارسلها الفرعون الى صاحب جبيل فاظهرتها الحفريات انما هي هدايا ملوكية بينها صولجانٌ صبّ على الدهر تُوَيِّجُ راسهِ ثم قرص من الذهب تعلوهُ مظلّة من البردي مسبوكة بالذهب ثمّ صحيفة ذهبيّة ايضاً وحلية للصدر من الذهب مزدانة بالميناء البديع كالحلية الصدريّة التي كان يتقلّدها الفراعنة . واخيراً قطعة كبيرة من الذهب عليها اسم ملك جبيل المحفور في وسط إطار على شبه اسماء الفراعنة . فيظهر من هذه الهدايا انّ ملوك جبيل كانوا في بلادهم اصحاب الامر والنهي والحلّ والعقد وانّهم من الوجه الاقتصاديّ كانوا لا يتنازلون عن اخشاب جبلهم الّا بعد تأدية اثمانها نقداً او مقايضةً بهدايا جواهر ثمينة كما تشير اليها الكتابات . وقد ورد هناك اسم ملكين وطنيين بلفظها السامي اعني ابي شامو وابشيموابي

Ap-schimou-abi Abi-schamou

ابشيموابي ابي شامو

هيكل جبيل في العهد اليوناني الروماني

﴿ الدور الثالث ﴾ ثبتت العلاقات بين مصر وجبيل صافية الوداد اهليةً الى القرن الخامس عشر قبل المسيح فقام حينئذٍ فراعنة السلالة الثامنة عشرة ولاسيّما في عهد تحوتمس الثالث فبسطوا ملكهم على سائر فلسطين وسوريّة . فانّ كتابات تلّ العمارنة التي بينها عدّة رسائل من امير جبيل تدلّ على توالي المصريين على وطنهِ

ولمَّا صار الامر الى ملوك السلالة التاسعة عشرة خفَّت وطأة الفراعنة على جبيل فكانت امور اصحابها وفق رغبتهم والدهر لهم مساعدًا. هذا ما يستنتج من الحفريَّات الاخيرة التي تولَّى شؤونها المسيو مونته فكان آخر بئر فتحها هذا الاثري بئرًا واسعة مربَّعة الزوايا تزيد جوانبها عن متر ين أفضت بهِ الى غرفة مدفنيَّة حيث وجد ثلثة نواويس كان ناؤوسان منها ساذجين لا كتابة عليهما . امَّا الناؤوس الثالث فهو من اجمل الآثار واعظمها شأنًا وعليهِ تاريخ لا يشكُّ المسيو مونته في صحَّتهِ فانهُ يرقى الى القرن الثالث عشر قبل المسيح على عهد رعمسيس الثاني يدلُّ على زمان ذلك الناؤوس ما يحتويهِ في باطنهِ او يحدق بهِ . وهو مزدان بنقوش وعليهِ كتابة . ويدَّعم الناؤوس على اسدين رابضَين ظهرُ الواحد الى ظهر الآخر بحيث تُرى قائمتا كليهما وفمها خارجًا عن الناؤوس . وعلى اطراف الغطاء ايضاً قد نقشت رؤوس حيوانات

وعلى جوانب الناؤوس تصاوير وكتابات منقورة فيها . فعلى الواجهة قد مُثِّل ملك جبيل جالساً على العرش يحدق بهِ ثمانيل ابي الهول المجنَّحة كما تُرى في مصر . وامامهُ مائدة عليها التقادم لأنَّ المصريين، وجرى الفينيقيُّون على رأيهم، كانوا يزعمون انَّ الموتى يتمتَّعون في الحياة الاخرى بالامتعة التي تُرسم صورُها على قبورهم . وعلى هذه المائدة اشكال لاطعمة التي كان الملك يتمتَّع بها في حياتهِ . وتحتهُ يرى ثلاثة صوَّروا اربع نساء من العوالم الزائلة يأتين الى استقبالهِ واربعٌ عبرهنَّ على رجعهِ آخر . ولكلٍّهن ملابس تختلف عن ثياب نساء مصر لهن قمطان مدرَّجة مئتشرة وضيقة في اسفلها

امَّا الكتابة فهي من بدائع هذه الاكتشافات الاخيرة فانَّها مكتوبة بالقلم الفينيقي بحروف جليَّة وهي ترقى الى القرن الثالث عشر قبل المسيح وكان اقدم ما وجد قبلها من الكتابات الفينيقيَّة لا يكاد يتجاوز القرن التاسع فهي اذن تسبق غيرها باربعة اجيال . وهذه الكتابة التي ترى هنا صورتها ليست كتابة مشوَّشة او مضطربة بل هي كتابة ثابتة جليَّة الحروف ما يدلُّ على انَّها كانت دارجة شائعة قديمة العهد قد اتَّخذها الفينيقيُّون لضبط حساباتهم ولمعاملاتهم الاهليَّة . فتراها اليوم مدوَّنة على اثر رسمي اي ناؤوس ملوكي راقٍ الى القرن الثالث عشر بدلًا من الكتابة المسماريَّة التي كانت شائعة في القرن الخامس عشر قبل المسيح وبها كُتبت

رسائل تلّ العمارنة وبدلًا من الهيروغليفيّة الشائعة بين المصريين وعمّالهم

وفي هذه الكتابة اسم ملك جبيل المعاصر لرعمسيس الثاني يدعى «اخي رام» اي حيرام وهو سمي ملك صور صديق سليمان الحكيم ابن داود المذكور في سفر الملوك وهذا حيرام جبيل تقدّم على سميّه بمئتي سنة فعُرف بفضل الكتابة المكتشفة حديثاً

وقد استفدنا ايضاً من هذه الاكتشافات معرفة شيء من الفنّ الفينيقي . فانّ هذه الآثار اثبتت انّ الفينيقيين ابتدعوا لهم فنًّا مستقلًا استعاروا بعض اصوله من الامم المجاورة وهو لا يخلو مع حسنه من غرابة في الشكل

أمّا ما يختصّ بامر الدين الفينيقي فقد بيّن الاستاذ مونته العلائق بين الاساطير المصريّة الدينيّة ومعبودات جُبيل ولاسيّما بين قصة ايزيس واوزيريس وبين ادونيس (تموز) وعشترت فأثبت أنّ فينيقية لم تستعر معبوداتها من مصر بل هي التي انفذت في مصر معتقداتها الدينيّة . وقد استند قولهُ (اوّلًا) الى بعض الآثار العريقة في القدم التي اظهرتها الحفريّات وتوافقها «نصوص الاهرام» المعروفة فيستدلّ منها عبادة الفينيقيين لزوج المحيّ . و(ثانياً) الى الاقاصيص المصريّة وخصوصاً الى «رواية الاخوين» يتّضح منها انّ العلائق بين ذاك الاله وزوجته هي العلائق التي كانت تُنسب في العهد اليوناني الروماني الى ادونيس وعشترت

فبعد هذا الوصف للآثار التي استخرجها المسيو مونته من مدافن جبيل لا نرى حاجة الى بيان عظم شأنها سواء كان لمعرفة تاريخ فينيقية وتاريخ مصر ام لتاريخ الفنّ الفينيقي بل ستستفيد منها الدروس الكتابيّة ايضاً . فانّها ستُفحم بعض الملحدين الذين كانوا يسخرون من الكاثوليك لاعتقادهم بوضع موسى النبي للاسفار المقدّسة زاعمين انّ بني اسرائيل لم يكتبوا شيئاً من الاسفار المنزلة قبل القرن التاسع السابق للميلاد لعدم اكتشاف الكتابتين الفينيقيّة والعبرانيّة

وفي الختام يجب علينا وعلى كل الوطنيين ان نصوغ آيات الشكر للمسيو مونته الذي رفع منار الفينيقيين وقد جازاهُ الله عن اتعابه بهذه الاكتشافات الجديدة التي ستخلّد اسمهُ بين العلماء . ولولا انصبابهُ منذ عشرين سنة على درس الكتابات المصريّة لما امكنهُ ان يبلغ الى احياء هذه الآثار . فيا ليت بعض الشبان الوطنيين يقتدون بمثله فينقطعوا الى هذه الدروس المفيدة لئلا نكذب المثل ان صاحب البيت ادرى بما فيه